تـمّ تحميل هـذا الملفّ مـن مكتبة الأديب الرّاحل رمضان لاوند | جميع الحقوق محفوظة © www.RamadanLawand.com

الأَديب و المُفَكِّر الرَّاحِل
رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاوَند
سيّد المنابر

عمالقة في التاريخ

الأحنف بن قيس التميمي

الاقتران بين البسطة في العقل والبسطة في الجسم هو الظاهرة الطبيعية التي تلفت الأنظار في العادة إلى عظماء الرجال . ولعل هذا الاقتران أن يكون نابعاً من طبيعة الفطرة الإنسانية السليمة . ولا عجب في ذلك فالقوة في الفكر والعقل والأخلاق تنعكس بطبيعتها على قوة في الجسم . لكن عظيمنا في مقالة اليوم يبدو لنا استثناءاً من تلك الظاهرة الطبيعية . والغريب في أمره أنه كان بقدر ما يتصف به من الاستثناء في مواصفات العظمة كان أيضاً على غير ما يعهده الناس في أمثاله من عظماء الرجال وعمالقة التاريخ . هذا الرجل الكبير الذي اجتمع فيه النقيضان هو أبو بحر الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين بن عبادة التميمي . الرجل الزعيم البطل الذي طار ذكره في الندى والبأس لا في جيله ،جيل العمالقة وحسب ، بل في أجيال تالية بعده .

****

سمي الأحنف لأنه ولد وفي قدمه حنف " والحنف في القدمين أن تقبل كل واحدة منهما بإبهامها على صاحبتها " .. وهذا يعني أنه لم يكن يمشي مشية الرجال العاديين بل يخطو بخطوات ثقيلة بطيئة مع تشويه ظاهر في القدمين .

ويقال أن أمه كانت معجبة به ترقصه وهي تردد هذا البيت من الشعر :

والله لولا حنف في رجله

ما كان في الحي غلام مثله

وقد زاد الطين بلة أن عينه ذهبت عندما فتح سمرقند فأصبح أعور . يضاف إلى ما سبق أنه كان متراكب الأسنان ، صغير الرأس ، مائل الذقن ، قصيراً دميماً ، ناتىء الوجنة ، منحسف العينين ، خفيف العارضين كما كان كوسجاً لا لحية له في وجهه . وكان قومه يقولون : " وددنا أننا اشترينا للأحنف لحية بعشرة آلاف " ..

****

إن صورة الأحنف كما وصفها المؤرخون الثقاة وأجمعوا عليها تذكرنا بجرير الشاعر الأموي الذي كان يفاخر منافسيه من الشعراء وأصحاب النفوذ من أفراد جيله بوالده الذي يفقد كل خصائص الرجولة وفضائل المروءة وكريم الخصال . وقد اعتبر جرير أن نجاحه في المفاخرة بمثل هذا الأب آية من آيات عبقريته . ذلك لأن أدبه وسحر بيانه وفيض شعره قد عوضته عن كل ما يفتقده في أسرته .

والواقع أن الأحنف بن قيس التميمي لم يبطىء به قبحه ولم يقلل من شأنه قصر قامته ودمامة وجهه . وقد بلغ من قوته وعظيم قدره أنه دخل يوماً على معاوية بين أبي سفيان وقد استقرت الخلافة له وأصبح الرجل الأول في امبراطورية عرضها العالم المعمور في عصره . فإذا جلس قليلاً قال له معاوية : " والله يا أحنف ما أذكر يوم صفين إلا كانت خرازة في قلبي إلى يوم القيامة ! ".. وكان الأحنف قد حازب الإمام علياً رضي الله عنه وقاوم معاوية في معركة صفين بسيفه ولسانه . وقد ظن معاوية وهو يحاسب الأحنف على موقفه المعادي له يومذاك أن هذا الأخير سيعتذر منه ويتطامن أمامه .

وكم كانت المفاجأة شديدة حين أجابه بلسان البطل الواثق من نفسه قائلاً : " والله يا معاوية ، إن القلوب التي أبغضناك بها لفي صدورنا ، وإن السيوف التي قاتلناك بها لفي أغمادها ، وإن تدنُ من الحرب فتراً ندن منها شبرا ، وإن تمشى إليها نهرول إليها " .. ثم نهض وغادر المجلس .. وكانت أخت معاوية تسمع كلامه من وراء حجاب ، فقالت لأخيها : " يا أمير المؤمنين، من هذا الذي يتهدد ويتوعد ؟! ".. قال : " هذا الذي إذا غضب غضب لغضبه مائة ألف من بني تميم لا يدرون فيم غضب ولا يسألون فيم رفع سيفه "..

هذه الرواية كافية للتدليل على حجم الأحنف بن قيس ووزنه في دولة معاوية الذي انتزع الخلافة لنفسه بقوة السيف ومناورات السياسي الحاذق .

****

وقبل أن نتحدث عن الأحنف بن قيس فنتعرف إلى عقله وخصائصه الشخصية والدور الذي لعبه في قومه نستعرض دوره في الميدان العسكري ووعيه بأساليب القيادة وبعد نظره في التخطيط الاستراتيجي .

يروي صاحب كتاب " تهذيب ابن عساكر " أن الأحنف بن قيس قدم على عمر بن الخطاب بشيراً بفتح مدينة " تستر " منتدباً من قبل أبي سبرة بن أبي رهم القائد العام للجيش العربي المسلم في بلاد فارس ومعه الصحابي الجليل أنس بن مالك والقائد الفارسي الهرمزان الذي استسلم مشترطاً الاحتكام إلى ابن الخطاب .

سأل عمر الوفد معقباً على انتقاض أهل البلاد على المسلمين قائلاً : " لعل المسلمين يؤذون أهل الذمة ، فلهذا ينتقضون بكم؟ " وكان يشير إلى انتقاض الهرمزان بعد صلحه مع المسلمين . قال الأحنف : " يا أمير المؤمنين إنك نهيتنا عن الانتشار في بلاد فارس ، وإن ملك فارس بين أظهرهم ، فلا يزالون يقاتلون ما دام ملكهم فيهم . إذ لا يجتمع ملكان متفقان حتى يخرج أحدهما الآخر ، وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئاً بعد شيء إلا بانبعاثهم وغدرهم ، وأن ملكهم هو الذي يبعثهم على ذلك ، فلا يزال هذا دأبهم معنا حتى تأذن لنا بالانتشار فنسيح في بلادهم ونزيل ملكهم ، فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس .".. قال عمر : " لقد صدقتني والله يا أحنف ".. ثم أذن للمسلمين في الانتشار في بلاد فارس لاستئصال دولتهم والقضاء على ملكهم.

هكذا عرف عمر شخصية الأحنف واستوعب بعد نظره فرأى فيه عقلاً وديناً . ومنذ ذلك اليوم برز الأحنف أشد ما يكون البروز مجاهداً في سبيل الله فدفع له لواء " خراسان " وهي منطقة واسعة جداً من دولة الأكاسرة . وكان ذلك في العام السابع عشر الهجري .

****

على أن الأحنف شهد قبل أن يتوجه إلى خراسان قائداً للجيش العربي الفاتح معركة " فتح الفتوح " في مدينة " نهاوند " مع أهل البصرة الذين جاؤوا مدداً بقيادة أبي موسى الأشعري . فلما انصرف أبو موسى من " نهاوند " وفتح مدينة " قم " وجه الأحنف إلى مدينة " قاشان " ففتحها عنوة ثم لحق بأبي موسى الأشعري .

****

وفي العام الثامن عشر من الهجرة أتم تعبئة قواته وأكمل تحشيدها ثم سار لفتح خراسان . وكان الملك الفارسي " يزدجرد " قد لجأ إلى مدينة الري بعد هزيمة الفرس في معركة " جلولاء " ثم انتقل إلى " أصفهان " ومن بعدها إلى "كرمان " وأخيراً استقر في مدينة " مرو " من خراسان وبنى فيها بيتاً لعبادة النار .

والجدير بالذكر أن يزدجرد هذا قد حرض الهرمزان وأثار أهل فارس والجبال بعد مصالحتهم للمسلمين فصدق رأي الأحنف في ضرورة القضاء على الملك الفارسي كشرط أساسي لامتناع الفرس عن الارتداد ونكث العهود .

****

هكذا دخل الأحنف منطقة خراسان على رأس جيشه عبر حصنين أطلق عليهما اسم " الطبسان " فافتتح مدينة " هراة " عنوة واستخلف عليها . ثم مضى يفتح المدينة بعد المدينة ويجتاح الرستاق بعد الرستاق حتى إذا شعر يزدجرد بعجزه المطلق عن مقاومة الفاتحين العرب كتب إلى ملوك الترك وبلاد الصغد والصين يستجير بهم ويطلب النجدة منهم .

ثم تتابعت الأحداث والمواقع فنهض خاقان الترك لإنجاد يزدجرد بقوات كبيرة من جيشه . فأصبحت الحرب بين العرب من جانب وبين بقايا الفرس والجيش التركي من جانب آخر سجالاً حتى تواقف الفريقان عند ضواحي مدينة " مرو الروز " التي يحتلها العرب . في ذلك اليوم وقف الأحنف خطيباً في أخوانه المسلمين وكانوا قليلين إلى جانب كثرة الأعداء وقال لهم : "إنكم قليل وإن عدوكم كثير ، فلا يهولنكم ذلك . فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين . ارتحلوا من مكانكم هذا واستندوا إلى الجبل فاجعلوه في ظهوركم ، واجعلوا هذا النهر بينكم وبين عدوكم ، وقاتلوهم من وجه واحد" . وكانت قوة الأحنف تقدر بعشرين ألف مقاتل . منهم عشرة آلاف من البصرة ومثلهم من الكوفة .

وأقبل الترك على المسلمين يقاتلونهم في جماعات متفرقة قليلة خلال النهار . حتى إذا هبط الليل امتنعوا عن القتال .

والواقع أن الأحنف بن قيس كان في قيادته للمعارك على صورة القادة غيره من المسلمين . يتقدم الصفوف ليكون قدوة لرجاله في مواجهة الخطر والتعرض لشفرات السيوف . بل كان يخرج بنفسه طليعة لأصحابه يتعرف على أوضاع العدو عن قرب . وفي ليلة من الليالي خرج وحده حتى أصبح قريباً من معسكر خاقان الترك . فلما تنفس الصبح خرج فارس من الترك وابتعد عن معسكره فحمل عليه الأحنف فاختلفا طعنتين كانت طعنة الأحنف هي السابقة فسقط الفارس التركي مجندلاً .

وهنا خرج فارس تركي آخر ثأراً لصاحبه ففاجأه الأحنف بطعنة من سيفه فأورده موارد التهلكة . ثم خرج فارس تركي ثالث فلقي بسيف الأحنف ما لقيه الفارسان السابقان .

****

ويبدو أن خاقان الترك قد شعر باليأس من الانتصار على العرب لا سيما وأن جيشه قد تكبد الخسارة الفادحة تلو الخسارة فأمر قواته بالانسحاب والعودة إلى بلاده . وهنا لاذ يزدجرد بالفرار وأخذ يتنقل هارباً من قرية إلى قرية ومن مدينة إلى مدينة ومن منطقة إلى منطقة .. حتى بلغ منطقة فرغانة الواقعة شرقي نهر جيحون . ولولا أن أمير المؤمنين قد منع الأحنف بن قيس من اجتياز هذا النهر خوفاً على المسلمين وتأميناً لخطوطهم التي طالت كثيراً لكان في وسع الجيش العربي أن يتابع مطاردته ليزدجرد . ولكنه وقف حيث أمر بالوقوف . وبذلك انتهت دولة فارس . واستقرت الأمور لجيش الدولة العربية الفتية الجديدة في بلاد فارس طولاً وعرضاً ..

وعندما حقق الأحنف ما حققه من النصر المؤزر كتب إلى عمر بالفتح وبعث إليه بالأخماس . فلما وصل كتابه نهض أمير المؤمنين خطيباً في رجال الوفد وفيمن حضر من أهل المدينة قائلاً : " ألا أن الله قد أهلك ملك المجوسية وفرق شملهم ، فليسوا يملكون من بلادهم شبراً يضر بمسلم . ألا وأن الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم لينظر كيف تعملون ، والله بالغ أمره ومنجز وعده ومتبع آخر ذلك أوله ، فقوموا في أمره على رجل يعرفكم عهده ويؤتكم وعده ، ولا تتبدلوا ولا تغيروا فيستبدل الله بكم غيركم ، فإني لا أخاف على هذه الأمة أن تؤتى إلا من قبلكم ."..

والجدير بالذكر أن هذا الرجل الذي أوتي من مكارم الأخلاق وقوة الشخصية وكمال العقل وصلاح الطوية والجرأة في الحق ما لم يؤت مثل كماله وجماله في جسمه ، نقول : أن هذا الرجل الذي أكرمه الله بما أكرمه به لم يدخل في دين الله متأثراً بالوفود والرجال الكثيرين الذين وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم معلنين إسلامهم ، كما لم يتأثر بمعجزات مادية شهدها بعينيه كما قد يفعل كثير من عامة الناس مع كثير من الأنبياء والرسل بل كان دخوله في هذا الدين نتيجة لاحتكامه إلى عقله وحسن إدراكه واستيعابه لحلو الكلام وعبقري البلاغة . فقد سمع الرجل من بني الليث الذي انتدبه الرسول المصطفى عليه السلام يتحدث إلى قومه من بني سعد ويعرض عليهم الإسلام ، فما لبث حتى استبان الجمال والأصالة والقوة والصدق في الذي سمعه . وأثبت أن التقاليد والأعراف والعادات التي تستعبد أكثر الناس في العادة لم يكن لها أي تأثير عليه ، ومن ثم قال لقومه هذا الرجل يدعو إلى خير ويأمر بخير . وهكذا أسلم القوم وأسلم الأحنف في مقدمتهم . وعندما روي للنبي عليه السلام ما فعله

الأحنف قال : " اللهم اغفر للأحنف " .. ثم عندما علم الأحنف بعد ذلك باستغفار الرسول له قال : " فما شيء أرجى عندي من ذلك ."..

المهم أن الأحنف بن قيس كشف عن شخصيته العسكرية بقوة ووضوح وصلابة فلم يجبن عن مواجهة الأخطار مهما عظمت ، ولم يعجز عن استيعاب المواقف المحرجة التي قد طالما تعرض لها في قياتده لجند المسلمين ، ولم تبطره الانتصارات التي حققها . وكان التزامه لأوامر رؤسائه آية على وعيه بمسؤوليات الحكم وإيمانه بضرورة الدفاع بكل قوة وأمانة عن سلامة بنية الدولة .

ومما يروى في ترجمة حياة الأحنف أنه قبل أن يتولى قيادة جيش كبير يفتتح به منطقة واسعة كمنطقة خراسان في الشرق الأقصى من دولة الأكاسرة أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي فتح له باب الإمارة قد احتبسه عنده منذ اليوم الذي التقاه فيه موفداً من قبل أمير البصرة أبي موسى الأشعري . واستمر احتباسه له عاماً كاملاً . حتى إذا حال الحول والأحنف لا يدري سبباً لهذا الاحتباس جاءه عمر بن الخطاب وقال له : " هل تدري لم حبستك ؟ يا أحنف قد بلوتك وخبرتك فلم أر إلا خيراً، ورأيت علانيتك حسنة وأنا أرجو أن تكون سريرتك مثل علانيتك ، فإنا كنا نتحدث أنه إنما يهلك هذه الأمة كل منافق عليم ..".

هذه الرواية إن صحت تدل إلى شيئين اثنين :

1) أن عمر بن الخطاب لم يكن يبالي بما يسمع عن الرجال وحسب ولم يكن يتردد في امتحانه لهؤلاء الرجال أمام ما يحيط بهم من هالة النفوذ وعلو المكانة ، فقد كان حريصاً على اختبار الرجل الذي يلفت نظره ويجد فيه الكفاءة المطلوبة في القائد أو الوالي الذي يفترض فيه الحدب على الناس ورعاية حقوقهم وضبط الإدارة فيهم .

2) أن الأحنف بن قيس قد استطاع الاحتفاظ بأكمل الصفات والتخلق بأخلاق الرجولة والسماحة بالإضافة إلى الذكاء اللماح والدربة على قيادة الرجال طيلة عام كامل لا يدري لم بقي فيه محتبساً قرب أمير المؤمنين . هكذا كان الممتحن شديداً ودقيقاً في تسجيل ملاحظاته كما كان الممتحن " بفتح الحاء " قادراً على الاستجابة لكل تحديات الامتحان الأميري . فخرج بعد عام الاحتباس وهو يتمتع بثقة ابن الخطاب على غرار قلة من الرجال الذين انتخبهم هذا الخليفة أعوان صدق له بعد أن تبين في كل منهم الصفات التي تبوئه مكانة القائد الجدير بالثقة والمؤهل لإدارة شؤون العباد ..

****

والجدير بالذكر أن ما قلناه عن الأحنف بن قيس حتى الآن لا يعدو أن يكون حديثاً عن بعض انجازاته العسكرية وشجاعته في بعض المواقف . لكن التعرف إلى حقيقة هذه الشخصية المتميزة لا يتم باستعراض انجازاته العسكرية وحسب بل بالتنقيب عن جملة من الصفات الأخرى التي كشفت لعارفيه عن جملة من المزايا منها الحلم والعقل والعلم والحكمة وبلاغة القول والدهاء والإيثار والأمانة والأناة والورع وغير ذلك مما تكتمل به شخصية الانسان ويستحق به مكانة الأمير ووجاهة السيد في قومه .